يد بحجم العملاق

قصة بقلم عبد الفتاح حسن

كانت يدي تقودني .. تجرني ، أتعلق بها واختفي وراءها وانا اتقدم منه . كنت اشعر اني انسان اخر .. بيني وبين حقيقتي جدار عال. الشر هو الذي ينتصر .. القوة هي التي تأخذ ... الحق ، الانسانية ، المواساة .. مورفين ، مخدر ، ايمان ضعيف .. بيدي هذه سأخذ الدواء او روح هذا الذي ينتمي الى فصيلة الانسان . ان جسمه الضخم لن يخيفني ! بيدي هذه التي اتعلق بها وارتجف ، كوريقة في غصن دلب صلب .. بيدي هذه ، بقوة خارقة ، سأقبض على الدواء ثم اعطيه لرضوى – زوجتي – لتغادر به الصيدلية كما اعلنتها ثم اتدبر امري ..

رفع الرجل نحوي عينين لا مباليتين . اخذ الوصفة من يدي ، وهو يضع على انفه نظارتيه ، عقد فوقها حاجبيه . رفع رأسه وصاح :«ياعبود» .. ظهر على باب المختبر شاب هزيل الجسم والوجه ، يلبس مريولا ابيض . مد له الرجل الورقة : « ايت بهذا الدواء من المستودع للاخ .»

للاخ ! انا اخوه الان لانه يتصور انه سيقبض مني مالا . انا اخوه حتى يحضر الدواء .. ويختفي ، ثم اصبح لصا .. مجرما .. استحق الرمي في السجن ، والضرب .. والموت ، انا اخوه اذا سرقت لاعطيه ثمن الدواء .. او عدوه .. عدو الناس .. عدو المجتمع .. عضوه الفاسد الذي يحل بتره ، او ادفع الحق ... ثمن الدواء .

واشار الي « ان اجلس »وقال : « عشر دقائق على الاكثر اذا سمحت » .

وتراجعت الى جانب رضوى .. والقيت بنفسي على كرسي .

كانت تجلس على طرف الكرسي محنية الرأس والكتفين فوق الطفل . رأسه الصغير ، مرمي على ذراعها ، وجهه مرتع صفرة وشحوب عجيبين . جفناه ازرقان ، يضطربان فوق حدقتيه الغائرتين . وتمد رضوى الى جبينه وفمه منديلا صغيرا تلملم به حبات العرق عنهما .. ثم يهتز كتفاها .. ويهتز رأسها .

لماذا تبكي ؟ لو خيرت بين موت فؤاد او سجني .. الا تختار حياة ابننا ؟ انا اشتريه بحياتي .. فكيف بسجن ايام او اشهر ؟ لقد قررت.. أفهمتها اني لن اعود الى البيت بدون الدواء . الدواء سأحصل عليه ، من هنا .. من « صيدلية الامانة » .. بالقوة .. بالخديعة .. احطم رأسي لاجله .. فلماذا تبكي ؟ ومددت يدي اربتها مطمئنا ، مشجعا ..

ولست ادري كيف اعترتني موجة ارتياح بالغ . موجة خير كادت تقيمني وتقعدني . وبلا ارادة التفت الى الرجل صاحب الصيدلية . على وجهه الممتلىء سيماء وسماح .. في عينيه وداعة وسلام ، على جبينه المتفضن معالم انسانية واضحة .. وعلى شفتيه وحول انفه كوم حنان ومحبة .. « يا الهي .. ان قلبي يحدثني بان هذا الانسان سيسهم في اعادة ايماني بالناس الى ضميري .. سأحصل على الدواء باذن الله .. سيعطينيه الرجل .. »

ورأيته يشير الى الطفل ويقول :

– مسكين .. يظهر ان حاله خطرة ..

– جدا ياسيدي .. جدا .

عجبت لردي السريع له .. وللطريقة المسترحمة التي عبرت بها عن قلقي . ولمحت على صفحة وجهه اطياف تجاوب عاطفي نحوي ،فاطمأننت اليه وكدت اكشف له عن جرحي العميق فأشكو له الطبيب الذي عاين ولدنا فعجب لبقائه على قيد الحياة الى الان .. ثم لما توسلت اليه ان يبقي لنا على خشبة النجاة الوحيدة معي .. على الليرات الخمس اليتيمة تمنع عن وصف الدواء ، وتعرف بلؤم قاس مزق قلبي ، وحول ضميري الى مرتع شياطين شريرة .. كنت أتصورني اخنقه ، اقتله ، امزقه ، بيدي ، بأظافري ، بأسناني .. أنثره اشلاء وأذروه رمادا في عاصفة . فلقد كان الكفر بالحياة يطل من عينيه الخائنتين .. ولقد كان السم الزعاف يقطر من شفتيه المطوطتين بابتسامة حقود الى جانب واحد من وجهه ، وهو يدفع رأسه الى الوراء دفعات صغيرة ويمزق بهدوء الوصفة التي كتب ، ويحولها الى نتف صغيرة كأنها اشلاء امل ضعيف ، او روح المريضة تعبث بها أصابع عملاقة وتذيقني الموت في كل لحظة الف مرة .

ولكني مددت يدي الى جيبي واخذت قطعة النقد الوحيدة التي أملك .. وتخليت عن اخر مايربطني بدنيا الناس ، بالناس ، من صلة جنس ، وروابط اجتماعية ، وتعاطف ، ومحبة ، وانا اضعها باستسلام وخضوع امامه .. على مكتبه . وتحول كله امامي الى نقطة بيضاء كندفة قطن كبيرة متحركة تضمحل في لجة ضباب كثيف ، غلف كل ماحولي ، احاط بي ، اغرقني .. امسك بخناقي .. وشددت اصابعي على الوصفة .. وعصرت عيني لاتبين طريقي . وخرجت .

للمرة الاولى في حياتي ، أبكي .. أنا الرجل !

لقد مررت بمصائب كثيرة دون ان استشعر ضعفا فأبكي . ما من شك لو ان القضية تتعلق بموتي او حياتي لفضلت الموت ورحبت به .. ولكن المصيبة الان اكبر .. والحياة ، حياة ولدي ، اغلى من حياتي .. والبكاء ، أغلى ماعندي ، يرخص في سبيلها .

ولكن .. هل بكيت حقا من اجل ولدي ؟ كان ولدي لايزال يحيا !! لم اتصور اني فقدته ، فبكيت لفقده ، لم يخطر ببالي اني سأفقده فتصير المرئيات دخانا في نظري ... ولكني لاجله شعرت اني فقدت شيئا كحبي له ، هو حبي للانسان . لم اعد اشعر بذلك الوثاق الذي يشدني الى بني جلدتي . اصبح بيني وبينهم سد منيع . لقد مات الحب في قلبي ولبت المصيبة وقفت عند هذا الحد . فلقد تملكني شيطان كبير عندما سألتني رضوى :

– ما العمل الان يا صلاح ..؟

– سأحصل على الدواء الان .. ولو كلفني ذلك حياتي . سأسرق، سأقتل لاحصل على الدواء ..

وانطلقت في الشارع كموتور يعربد في صدره مخلوق عجيب يأكل الحياة .. يدفعني الى القتل ، الى الانتقام من .. من .. لم اكن ادري ممن على وجه التحديد ..ولكني كنت اتصورني اقتل كل من يقع عليه نظري .. الرجال .. النساء .. الاطفال .. ابني . واصرخ في وجه الطبيب : « اضحك اضحك .. لقد مات ابني .. » وكان نحيب رضوى ورائي : « صلاح .. صلا ح .. » كرصاص يخترق رأسي فيؤلمني ويضيعني ..

واعادني الى وضح واقعي صوت الرجل هادئا يوسد رأسي الثقيل :

– هون عليك ياأخ .. بسيطة باذن الله ..

وتنبهت الى اني كنت ابكي مرة اخرى . ومسحت دمعي بيدي .. وتأملت المكان .

لست ادري كيف دخلت هذا المكان .. حاولت ان استرجع ذلك في خاطري فلم اصل الى نتيجة ..

ـ المهم تأمين العناية التامة للمريض .. الدواء والدفء والنوم كلها دواء ..

« لماذا اتيتها الاقدار تضعين هذا الرجل في طريقي .. انه ليس سيئا .. »

ـ ابعده عن الرطوبة ما استطعت ..

« كيف ؟.. هل يمكن ان اخدعه ، او اقتله لاجل الدواء ..؟ وابني .. أين الهواء .. أختنق . »

ـ ان الحقنة في الشريان عمل دقيق .. عمل طبيب .. فهل عندك من يتقنه ؟..

« لن آخذ الدواء.. لن استطيع الحصول عليه .. انا اضعف !.»

ـ لاتخرج الطفل من البيت ..

الجريمة .. أبعد مايمكن ان اعمل .. انا لم اخلق لها .. ابي رجل طيب .. مؤمن .. امي ..« وحضر الدواء » امي يرحمها الله .. ضربتني مرة .. عضتني في خدي ، وبكت ، لاني سرقت بيضة من معشة جيراننا ، كان بكاؤها حارا قاهرا ...

ـ ذوب ملعقة صغيرة في فنجان قهوة واعطه ذلك كل اربع ساعات ..

« لم اذكر ان احدا من عائلتي كان سارقا .. او قاتلا ...

ـ تفضل ..

أمي تبكي ..

ـ خمس عشرة ليرة ..

« لا تبكي يا امي .. (واخذت رضوى الدواء .. وخرجت) .. كيف خرجت ؟.. قالت انها لن توافقني على عملي .. كانت تبكي .. لا تبكي يا أمي .. سأدفع ثمن الدواء .. ولدي يموت .. ساعدني يا فؤاد .. ان امك وامي تعذباني .. ابق معي.. لا تتركني انت ايضا..»

واحاول ان اقول شيئا فلا يسعفني لساني .. احاول جاهدا ان املك اعصابي ان اسيطر عليها دون جدوى .. وانحنى على المكتب امام الرجل .. على رؤوس اصابع يدي .. اكاد اسقط .. انا كورقة صفراء في مهب الريح العاصفة .. اسعل ..

ـ سيدي قيد سعر الدواء في دفتر عندك .. اذا اردت ..

ويسند الرجل ظهره « يا اخي .. » وانطلق الشاب الى الخارج ليلحق بزوجتي فصرخ فيه :

« عبود ... دعها ! » قلت بصوت متهدج :

ـ كان معي خمس ليرات اخذها الطبيب .. سأدفع لك ..

ـ ليس عندي شك .. ولكنك لم تعطني الفرصة لاظهر لك رغبتي بمساعدتك .. ان اخذك الدواء بهذه الطريقة خدعة .. سرقة .. وغير ناجحة ايضا .. كان باستطاعة الولد ان يلحق بالمرأة .. وباستطاعتنا الان ان نزج بك في السجن ..

ـ اقسم لك باني سأدفع الثمن ..

ولم اعد استطيع الكلام .. لقد اضمحل العملاق الذي حملني الى هذا المكان .. اختفى . واكمل الرجل ..

ـ ومع ذلك .. ولكي أبرهن لك عن صدقي في مساعدتك .. سأقيد المبلغ . وارجو لابنك الشفاء .. واكثر من ذلك .. الصيدلية مفتوحة امامك مادمت محتاجا ..

يدي تحملني .. أتعلق بها ، وأهتز كوريقة في غصن دلب صلب .. يدي العملاقة ، مرة اخرى ، تشد قلبي الى يد الرجل .. تعصر قلبي.. ارتجف وانا اقول :

ـ اشكرك ، اشكرك ... يا أخي ...

عبد الفتاح الحسن

صدر حديثا

في

سلسلة المسرحيات العالمية

سلسلة جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعة رائعة من أشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتاب المسرح .

الحلقة الاولى

البغي الفاضلة ... وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

طبعة جديدة

في غلاف ملون

الثمن ٢٠٠ ق.ل

* ——— *

الحلقة الثانية

ماريانا

تأليف فديريكو غارسيا لوركا

ترجمة

شاكر مصطفى

الثمن ٢٠٠ ق.ل